مستقبل الاسلام وإسلام المستقبل

الدكتور أحمد الريسوني
أستاذ أصول الفقه ومقاصد الشريعة
بجامعة محمد الخامس وبدار الحديث الحسنية بالرباط

"مستقبل الإسلام" موضوع يشغل الجميع ويؤرق الجميع، يشغل أبناء الإسلام وأعداء الإسلام. يشغل الخائفين على الإسلام والخائفين من الإسلام، الجميع يتطلع ويترقب ويتساءل: ما هو مستقبل الإسلام؟

ولعل كثرة التساؤل عن مستقبل الإسلام، وكثرة البحث والتفكير في ذلك، وتعدد الإجابات واختلافها، ليس فقط بتعدد المواقف والتوجهات والجهات، بل بتعدد الأيام والسنوات، إنما يؤكد جانبا مهما من المسألة، وهو أن "المستقبل غيب": لا يستطيع أحد أن يحكم عليه وعلى ما سيأتي به إلا بضروب من التخمين والتشوف والتكهن، وفي أحسن الحالات بضروب من التقدير والترجيح والتقريب...

ومما يساعد على التقدير والتقريب لمجريات المستقبل ومساراته ما نعلمه من سنن الله تعالى التي لا تتبدل ولا تتخلف ﴿ **سنة الله التي قد خلت من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا**[1] ﴾.

ومن سنن الله أن ما نزرعه اليوم نحصده غدا، وما نزرعه غدا نحصده بعد غد. قد لا ندري ماذا سنزرع غدا وبعد غد، ولكننا نعرف ماذا سنحصد غدا وبعد غد، لأنه هو ما زرعناه اليوم وسنزرعه غدا ﴿ **يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله ولتنظر نفس ما قدمت لغد واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون ولا تكونوا كالذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم**[2] ﴾.

ومستقبل الإسلام ما هو إلا حصاد للأفعال والتفاعلات التي نصنعها في حاضرنا وفي أيامنا هذه. ومستقبلنا المتوسط والبعيد هو ما سنصنعه في مستقبلنا القريب وفي أيامنا المقبلة. بعبارة أخرى: فإن ما نفعله هو ما سنحصده، وما سنفعله هو ما سوف نحصده.

---

[1] سورة الفتح ٢٣.
[2] سورة الحشر ١٨.

لا أحد يجهل أو ينكر أن جزءا كبيرا من واقع الإسلام والمسلمين قد صنعه غير المسلمين، وضدا على المسلمين، وأن جزءا كبيرا – أو أكبر – من مستقبل الإسلام والمسلمين سيصنعه غير المسلمين وضدا على المسلمين. لا نستطيع أن نقلل من حجم المخططات والمؤامرات والتأثيرات الأجنبية على مستقبل الإسلام والمسلمين. ولكن دعونا أولا نملأ ما لنا وما علينا، دعونا نفعل ما هو متاح لنا وما هو بأيدينا، وهو كبير وكبير جدا، فهو أكبر مما بأيدي غيرنا. وهو إن أحسنا أداءه يؤثر على ما بأيدي غيرنا ويحد منه كما وكيف.

إن الإسلام ينبعث ويتجدد ويتقوى عبر العالم كله منذ عقود وعقود، وذلك بالرغم من "**كيد أعدائه وعجز أبنائه**"، وبالرغم مما يصيبه من تشويه وتشويش من أبنائه وأعدائه، وحتى من بعض دعاته.

لندع جانبا ما يصنعه وسيصنعه غيرنا، مهما يكن من نفعه أو ضرره ومن خيره أو شره، لأنه مهما يكن حجمه وضغطه وأثره، فإن مستقبلنا – أكثر من حاضرنا– يبقى بأيدينا نحن أولا، إذا نحن فعلنا الذي لنا وعلينا.

وإن المسؤولية الأولى في رسم مستقبل الإسلام وصنعه تقع على المسلمين، وتقع أولا على علماء الإسلام ودعاته ومفكريه. فهم الأكثر أهلية وقدرة على تشكيل مستقبل الإسلام من خلال تشكيل سلوك المسلمين، ومن خلال توجيه إسلام المسلمين. إنهم مدعوون إلى مزيد من الاجتهاد والتجديد، وإلى مزيد من التعمق والاستيعاب لقضايا زمانهم ومتطلبات عصرهم واتجاهاته المستقبلية، من أجل إحداث الملاءمة الضرورية والمتوازنة مع مقتضيات الإسلام وأحكامه وحكمته. وذلك بعض ما أعنيه بعبارة "**مستقبل الإسلام**".

فما معنى "إسـلام المستقبل"؟

إنني أقول – قبل أن يقول لي غيري– إن الإسلام في أصله وجوهره ومجمل ما جاء به، هو إسلام واحد؛ هو إسلام الكتاب والسنة. فليس هناك إسلام للماضي وإسلام للحاضر وإسلام للمستقبل، وأقول: إن ثوابت الإسلام العقدية والخلقية والتشريعية، منها ما هو مستمر ومستقر منذ آدم ونوح إلى محمد عليهم الصلاة والسلام. وهو ماض على ذلك إلى يوم القيامة. وأن إسلام الماضي البعيد هو نفسه إسلام الماضي القريب، وهو إسلام الحاضر وإسلام المستقبل. ولكني أعرف وأرى —رأي العين لا رأي الفكر– أن الإسلام حين يتجسد في أشخاص معينين، وفي مذاهب ومدارس معينة، وحين يتنزل على ظروف زمانية ومكانية واجتماعية معينة، فإن صورته تتشكل وتتكيف على أقدار وأنماط مختلفة متفاوتة، تزيد وتنقص، وتضيق وتتسع، ولكنها على كل حال ليست نسخا متطابقة، ولا مقاسات متساوية مضبوطة، وكل هذه الأنماط والأقدار والتمثلات هي إسلام، أو من الإسلام، أو إحدى صور الإسلام، أو محسوبة على الإسلام. وهي حينما تتم وتتحقق في إطار علمي ورؤية اجتهادية موزونة متوازنة، بلا إفراط ولا تفريط، فإنها لا شك تعبر عن حيوية الإسلام ومرونته، وتعبر عن طاقته الاستيعابية الواسعة. وهي وجه من وجوه الحكمة والرحمة. ولكن حين تجري بلا ضابط ولا ميزان، ولا حجة ولا

برهان، فإنها تكون مجرد ترجمة لأنماط من العقليات والنفسيات، ومن الأهواء والشهوات، ومن الأذواق والعادات. وقد تصبح في النهاية شكلا من أشكال الإفراط والتفريط، أو من التجديف والتحريف.

وكل هذا يعطي الإسلامَ الواحدَ الذي أنزله الله، صفات وملامح شخصية أو مذهبية أو قومية، أو ظرفية، وكل ذلك قد يكون حقا وفي نطاق الحق. وقد يكون باطلا وفاسدا، وقد يمتزج فيه هذا وذاك...

ومن قديم كانوا يقولون: فلان أسلم وحسن إسلامه. وفلان دينه متين. وفلان دينه رقيق.

ومن هنا نستطيع أن نتحدث عن إسلام الصحابة والتابعين، وعن إسلام المتأخرين، وإسلام المعاصرين، وعن إسلام الحاضر وإسلام المستقبل.

ولقد تحدث أستاذنا العلامة يوسف القرضاوي عن صور وتصورات وتوجهات متعددة لإسلام اليوم، فهما وممارسة، سماها "**الاتجاهات السبعة السائدة اليوم في موقفها من الإسلام**[٣]".

من بين هذه الاتجاهات (الاتجاه الاجتراري)، ويمثله "بعض الدعاة الذين يفكرون بعقول الأموات من الماضين وينظرون إلى إشكالات الحياة المعاصرة بعيونهم، وبعض الجماعات الدينية التي تعيش على الماضي وحده ولا تهتم بما يمور به العصر من تيارات ولا ما يعانيه الواقع من مشكلات".

ومن بين هذه الاتجاهات (الاتجاه الاختصاري) الذي يختصر الإسلام ويختزله في العقيدة والعبادة، فهو "يريد الإسلام: عقيدة بلا شريعة، ودعوة بلا دولة، وسلاما بلا جهاد، وحقا بلا قوة، وعبادة بلا معاملة، ودينا بلا دنيا..."

ومنها أيضا (الاتجاه الاشتجاري) وهو الذي يجعل الإسلام في حالة شجار دائم مع كافة الناس. "أصحاب هذا الاتجاه دائما (في حالة حرب) مع غيرهم، شاهرون سيوفهم على من ليسوا أعداء لهم..." فهم يقدمون نموذجهم الخاص للإسلام "إنه الإسلام المقطب الوجه، العبوس القمطرير، الذي لا يعرف غير العنف في الدعوة، والخشونة في المجادلة، والغلظة في التعامل، والفظاظة في الأسلوب..."

ومن هذه الاتجاهات اتجاه (الوسطية الإيجابية) الذي يسميه أيضا (الاتجاه الحضاري). إسلام هذا الاتجاه هو "إسلام التيسير لا التعسير، والتبشير لا التنفير، والرفق لا العنف، والتعارف لا التناكر، والتسامح لا التعصب، والجوهر لا الشكل، والعمل لا الجدل، والعطاء لا الادعاء، والاجتهاد لا التقليد، والتجديد لا الجمود، والانضباط لا التسيب، والوسطية لا الغلو ولا التقصير".

---

[٣] الدور الحضاري للأمة المسلمة في عالم الغد – لنخبة من الباحثين والكتاب– نشر وزارة الأوقاف القطرية ١٤٢١/٢٠٠٠ بحث الدكتور يوسف القرضاوي بعنوان " حاجة البشرية إلى الرسالة الحضارية لأمتنا" ص ٧٠٧ وما بعدها.

من هذا الباب وعلى هذا الأساس أعني ما أعنيه بعبارة "**إسلام المستقبل**"، الذي من خلاله نضمن مستقبل الإسلام، على نحو أفضل وأمثل، ومن خلاله نستوعب طبيعة زماننا وأحوال عصرنا، مالها وما عليها، وما يمكن فيها وما لا يمكن، وما يصلح لكل داء من دواء، وما يلزم تقديمه على غيره لأولويته الظرفية أو الدائمة...

وفيما يلي بعض ملامح ذلك، وبالله تعالى التوفيق.

☑ مستقبل الإسلام بين الحرب والسلام

من التحديات الكبيرة التي تواجه المسلمين ويواجهونها: قضية الحرب والسلم. فهي من أخطر التحديات السياسية والعسكرية، ولكنها قبل ذلك من أخطر التحديات – أو الإشكالات– الفقهية والفكرية.

مما لا شك فيه أن الإسلام شرع الحرب والقتال عند اللزوم، سواء على سبيل الإباحة أو الوجوب، حسب الحالات.

والقتال يكون واجبا ومتعينا إذا كان بحق ولأجل الحق، وكان لا مفر منه ولا بديل عنه، وكانت نتيجته المرجوة محققة أو شبه محققة، ولم يكن من مضاره ومفاسده المحققة ما يربو على فائدته.

وفي جميع الحالات، فإن دخول الحرب يتوقف على وجود قيادة شرعية تقدر كافة الشروط والاحتمالات والانعكاسات، ثم يتبين لها ويثبت عندها ضرورة دخول الحرب. **فليس لأي واحد من الناس، ولا لأي جماعة منهم، الزج بالمسلمين في حرب بدون تحقق شروطها وموجباتها.**

والحقيقة أن معظم حالات القتال والأعمال المسلحة التي يخوضها المسلمون اليوم، أو تفرض عليهم هنا وهناك، داخليا وخارجيا فاقدة للشروط كلها أو أكثرها، وهي لذلك فاقدة للشرعية الإسلامية، وهي في أحسن التقديرات والتأويلات اجتهادات خاطئة، ضررها أكبر من نفعها، وشرها أكبر من خيرها.

فأولا: من الذي يمتلك الحق والصلاحية ليدخل الأمة أو جزءا منها في حالة حرب ويفرض عليها أداء ثمنها وتحمل تبعاتها؟

وثانيا: ما نتائج هذه المغامرات الحربية والقتالية؟ ماذا جنى منها الإسلام والمسلمون وغير المسلمين؟

- هل هي فتح للإسلام؟ لا
- هل هي نصر للمسلمين؟ لا
- هل هي هدية وهداية لغير المسلمين؟ لا

- هل هي نكاية لأعداء الإسلام والمسلمين؟ لا

وأما ثالثا: وهذا هو الأهم عندي، فيقتضي التفريق بين نوعين من الأعمال الحربية والقتالية:

١- ما يكون دفاعا عن الإسلام إذا اعتدي عليه بالإهانة والتشويه وصد الناس عنه والحيلولة بينهم وبينه، والطعن في عقيدته أو شريعته أو نبيه...

٢- ما يكون لرد العدوان والغزو والغصب عن المسلمين.

فأما هذه الحالة الثانية، فلا شك في حق المعتدى عليهم في رد العدوان بجميع الوسائل الممكنة، حربية وسلمية. وهم الذين يقدرون ويقررون ذلك، وعلى جميع المسلمين نصرتهم، الأقدر فالأقدر والأقرب فالأقرب.

وأما الحالة الأولى وهي المقصودة الآن، فتحتاج إلى مزيد تأمل وبيان.

يجب أن نستحضر أن الحروب الواسعة والشاملة اليوم هي حروب ماحقة مفنية، للإنسان والحيوان والعمران، والأسواق والأرزاق، والماء والهواء... وهذا شر ما أنتجته الحضارة الغربية. لقد أنتجوا ما يسمونه "**أسلحة الدمار الشامل**"[٤] التي لا تبقي ولا تذر، ووضعوها على رؤوس ملايير البشر. فرحم الله زمانا كان يقتتل فيه الناس بسيوفهم ورماحهم، ويخوضون معارك ضارية تسفر على قتل العشرات، ثم يعود الباقون إلى مواقعهم ومنازلهم، آمنين مطمئنين. فشتان شتان بين حرب وحرب وبين قتال وقتال. ونكاد نقول: اليوم قتل بلا قتال وإبادة بلا هوادة، ويقتل من الشعوب أضعاف ما يقتل من الجيوش.

فهل حروب كهذه يمكن أن تخدم الإسلام وتدافع عنه وترفع رايته؟ وهل هي تخدم أحدا أو تجلب نفعا لأحد؟ هل تجلب سوى العار والدمار للبشرية ولكل ما حولها؟

وإذا كان هذا هو الوجه الشرير البشع لعالم اليوم وحضارة اليوم، فإن هناك وجها آخر يجب استحضاره أيضا، وله تأثير بليغ في شأن دعوة الإسلام ومستقبل الإسلام، وفي مسألة الحرب والسلام، وأعني بذلك هذا التوسع غير المسبوق في فرص التواصل والتفاهم والحوار، وفي حرية الرأي والتعبير والدعوة والتبليغ.

إن الدعوة إلى الإسلام وتبليغه والدفاع عنه بشتى الوسائل، وفي مختلف بقاع العالم أصبح شيئا متاحا وميسرا بدرجة كبيرة. ففي أوروبا الغربية، وأوروبا الشرقية، وفي أمريكا الشمالية، وأمريكا الجنوبية، وفي شمال آسيا وشرقها وجنوبها، فضلا عن وسطها وغربها، وفي أفريقيا كلها، وفي روسيا وأستراليا، في كل هذه القارات والجهات من العالم ينتشر دعاة الإسلام وتنتشر المنظمات والمراكز الإسلامية، وتعقد الندوات والمؤتمرات الإسلامية، وتتاح لدعوة الإسلام فرص ومناسبات.

[٤] أنا أعني أن كل الأسلحة الحديثة هي أسلحة دمار شامل نظرا لشدة فتكها ولقدرتها التدميرية الواسعة.

أنا لا أنكر وجود مضايقات وعراقيل وضغوط في هذا المجال، ولكنها على كل حال قد لا تكون أسوأ مما يجده الإنسان حتى من نفسه وأهله ﴿ **إن من أزواجكم وأولادكم عدوا لكم فاحذروهم**[٥]﴾.

بل أكثر من هذا، فإن الاستجابة لدعوة الإسلام، وقبول الاستماع إلى دعاته وعلمائه ومفكريه، وقبول التحاور معهم، قد يكون اليوم متحققا اكثر من أي عصر سابق. وإذا كان أبو الأنبياء، والأب الثاني للبشرية، نوح عليه السلام قد بلغ من سخطه على قومه أن دعا عليهم فقال:

﴿ **رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا إنك إن تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا إلا فاجرا كفارا**[٦]﴾. لأنه دعاهم ما يقرب من عشرة قرون، فما استجاب له إلا أفراد معدودون، ولأنهم أمعنوا في كفرهم وضلالهم بشكل قل نظيره في التاريخ إن كان له نظير ﴿ **قال رب إني دعوت قومي ليلا ونهارا فلم يزدهم دعائي إلا فرارا وإني كلما دعوتهم لتغفر لهم جعلوا أصابعهم في آذانهم واستغشوا ثيابهم وأصروا واستكبروا استكبارا ثم إني دعوتهم جهارا ثم إني أعلنت لهم وأسررت لهم إسرارا...**[٧]﴾. والنتيجة: ﴿ **قال نوح رب إنهم عصوني واتبعوا من لم يزده ماله وولده إلا خسارا ومكروا مكرا كبارا..**[٨]﴾.

وقد بلغت حالة موسى عليه السلام مع فرعون وملئه شبيها بما بلغه نوح مع قومه، وظهر ذلك في دعائه أيضا: ﴿ **وقال موسى ربنا إنك آتيت فرعون وملأه زينة وأموالا في الحياة الدنيا ربنا ليضلوا عن سبيلك ربنا اطمس على أموالهم واشدد على قلوبهم فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم**[٩]﴾.

وقد قص علينا القرآن الكريم من أنباء أصحاب الكهف وأصحاب الأخدود وغيرهم ما نعرف من خلاله مدى محنة المؤمنين والدعاة السابقين، لمجرد إيمانهم وقولهم ربنا الله، ولمجرد دعوتهم للإيمان، ونعرف من خلاله مدى الكفر والقساوة والجبروت الذي واجههم به أهل زمانهم وحكام زمانهم. وهي أحوال لا نكاد نجد لها مثيلا أو شبيها في عالم اليوم، شرقه وغربه وشماله وجنوبه...

إن واقع عالمنا اليوم، بوجهيه المذكورين: حروب الدمار الشامل من جهة، والفرص الواسعة الميسرة لحرية الدعوة ووسائلها، يجعل من الأفكار والمبادرات الحربية التي قد يتم اعتمادها واللجوء إليها باسم الدعوة الإسلامية، وباسم نصرة الإسلام، وباسم إعلاء كلمة **الله**، واقعة خارج التاريخ ولا تمت إلى طبيعة الواقع ومتطلباته بصلة. إنها أعمال تقع وتوضع في غير مواضعها وتقع على غير مناطاتها وخارج شروطها.

---

[٥] سورة التغابن ١٤.

[٦] سورة نوح ٢٨-٢٩.

[٧] سورة نوح ٥-٩.

[٨] سورة نوح ٢١-٢٢.

[٩] سورة يونس ٨٨.

إن تبليغ الإسلام ونشره، وبيانه ونصرته، والدعوة إليه والدفاع عنه، كل ذلك متاح ميسور بما يفوق قدرات دعاته وإمكاناتهم، وما لا يكون ممكنا في بلد يكون ممكنا في غيره، ويكون غيره ممكنا فيه، وأمامنا وبين أيدينا من الوسائل والمسالك والمجالات ما لا يكاد يحصى، في أنواعه وليس في أفراده.

وقد حقق الإسلام في السنوات القليلة الماضية **فتوحات** عالمية، واخترق قلاعا عاتية، وذلك عبر القنوات التلفزيونية وعبر الوسائل الإلكترونية بمختلف أشكالها ووسائطها، ولقد أصبح منع الأعمال الدعوية والإعلامية والتواصلية، وفرض الرقابة عليها، ضربا من العمى والغباء والعبث عند من لا زالوا يمارسونه من الحكام المتخلفين.

ولا نريد لبعض شباب الإسلام ولبعض دعاته وجماعاته أن يكونوا على هذا النحو من التخلف والغباء، فيستمروا في جهلهم وتجاهلهم لطبيعة زمانهم، ويستمروا لذلك في معارك عبثية لا محل لها من الإعراب.

☑ مستقبل الإسلام بين منهج الرفض ومنهج الاستيعاب

وأعني بمنهج الرفض، ذلك التوجه الفكري – والسلوكي أيضا– الذي يبالغ في إظهار المخالفة والتعادي والمفاصلة والتنافي بين الإسلام وما سواه، مما يسود في المجتمع، وفي العالم، من معتقدات وأفكار ونظريات ومواقف وتصرفات... وهو ما يجعل الإسلام يبدو وكأنه يرفض كل شيء ويدين كل شيء ويتميز في كل شيء، **ويصبح كأنه يرفض الجميع ويرفضه الجميع**.

وهكذا يصبح "**الإسلام**" في حالة تنافر وتناف مع كل شيء، ومع كل الناس...

- رفض وصراع مع المسلمين لأنهم متمذهبون، أو لأنهم مبتدعون، أو لأنهم فاسدو العقيدة، أو لأنهم أشاعرة، أو رافضة، أو ناصبة، أو..
- رفض وصراع مع الأنظمة وكل ما يأتي منها وما يندرج فيها...
- رفض وصراع مع الديمقراطية والانتخابات والبرلمانات...
- رفض وصراع مع الحريات وحقوق الإنسان وحقوق المرأة...
- رفض وصراع مع الفنون والآداب بالجملة والتفصيل...

أنا لا أقول إن كل ذلك خطأ ولا ينبغي أن يكون منه شيء، ولكني أتحدث عن نزعة مبالغة في الرفض والتحريم والتبديع... مبالغة في المخالفة والمفارقة والمفاصلة... بل أجدني أحيانا أحدث نفسي عن هواية التحريم والتجريم...

ولهذا أصبح من الواجب المتعين إظهار الوجه الآخر للإسلام، وإظهار التوجه الآخر في الفكر الإسلامي. وهو التوجه الذي يخدم توسع الإسلام ويخدم مستقبل الإسلام. إنه الوجه الاستيعابي.

من المعلوم – أولا– أن الإسلام استوعب الرسالات الدينية السابقة عليه. فهو لم يأت لإماتتها وإزاحتها، وإنما أمدها بحياة جديدة. فهو قد جاء من أجل إحيائها وتخليصها من التحريف والتزييف، ومن الآصار والأغلال. **﴿ يحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم[١٠]﴾**.

فالإسلام وارث الشرائع السابقة ومستوعب لها.

وفي الصحيح عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: "وكان رسول الله ﷺ يحب موافقة أهل الكتاب فيما لم يؤمر به[١١]".

وفي صحيح مسلم أيضا، من نماذج الوجه الاستيعابي في الإسلام، ما رواه "عن عبد الملك بن شعيب بن الليث، حدثني عبد الله بن وهب، أخبرني الليث بن سعد، حدثني موسى بن علي عن أبيه قال: قال المستورد القرشي عن عمر بن العاص: سمعت رسول الله ﷺ يقول: "تقوم الساعة والروم أكثر الناس، فقال له عمرو: أبصر ما تقول. قال: أقول ما سمعت من رسول الله ﷺ. قال: لئن قلت ذلك، إن فيهم لخصالا أربعا: إنهم لأحلم الناس عند فتنة، وأسرعهم إفاقة بعد مصيبة، وأوشكهم كرة بعد فرة، وخيرهم لمسكين ويتيم وضعيف. وخامسة حسنة جميلة: وأمنعهم من ظلم الملوك[١٢]".

وكلها صفات مسوقة مساق المدح والثناء والدعوة إلى الاقتداء، مع أن هؤلاء خصوم ومنافسون تاريخيون للإسلام والمسلمين !

من جهة أخرى فإن الإسلام حين تنزل في عرب الجاهلية، بكل ما نعرفه من وثنيتهم وسائر قبائحهم، لم يعمد إلى محو آثارهم واستئصال عاداتهم وأعرافهم، والتشطيب على كافة نظمهم ومعاملاتهم... لم يعتبر ذلك كله شرا ورجسا وجاهلية. بل أقر من أخلاقهم وأعرافهم ونُظم حياتهم الشيء الكثير، سواء كانت أصوله دينية نقلية أو فطرية كسبية، فكل ذلك من سنن الله في هداية خلقه.

ومن لطائف السنة ونفائسها في هذا الباب ذلك الحديث الطويل المعروف بحديث أم زرع. وهو حديث قال عنه القاضي عياض "لا خلاف في صحته وأن الأئمة قد قبلوه، وخرجه في الصحاح البخاري ومسلم فمن بعدهما[١٣]". وخلاصته أن إحدى عشرة امرأة من نساء الجاهلية جمعهن مجلس لهن، فاتفقن على أن تتحدث كل منهن عن خصال زوجها وماله وما عليه، واتفقن على أن يكون حديثهن صدقا لا كذب فيه، ثم تحدثن بذلك

---

[١٠] سورة الأعراف ١٥٧.

[١١] صحيح مسلم، كتاب الفضائل.

[١٢] صحيح مسلم، كتاب الفتن وأشراط الساعة.

[١٣] بغية الرائد لما تضمنه حديث أم زرع من الفوائد، ص ١٨. نشر وزارة الأوقاف المغربية ١٣٩٥/١٩٧٥.

كلهن، وكانت آخرهن هي "**أم زرع**" ذات التجربة الشيقة مع زوجها السخي الكريم "**أبي زرع**"، وهي التي سمي الحديث باسمها.

وفي هذا الحديث أن رسول الله ﷺ قال لعائشة رضي الله عنها: "يا عائشة كنت لك كأبي زرع لأم زرع. فقالت عائشة: بأبي أنت وأمي يا رسول الله، بل أنت خير لي من أبي زرع...[١٤]".

وقد أفرد القاضي عياض هذا الحديث بشرح خاص سماه (بغية الرائد لما تضمنه حديث أم زرع من الفوائد).

قال القاضي رحمه الله عن هذا الحديث "وفيه من الفقه جواز الحديث عن الأمم الخالية، والأجيال البائدة، والقرون الماضية وضرب الأمثال بهم، لأن في سيرهم اعتبارا للمعتبر، واستبصارا للمستبصر، واستخراج الفائدة للباحث المستكثر.

فإن في هذا الحديث —لا سيما إذا حُدث به النساء– منفعة في الحض على الوفاء للبعولة، والندب لقصر الطرف والقلب عليهم، والشكر لجميل فعلهم، كحال أم زرع وما ظهر من إعجابها بأبي زرع، وثنائها عليه وعلى جميع أهله، وشكرها إحسانه لها، واستصغارها كل شيء بعده... مع ما فيه من صبر الأُخر اللاتي ذممن أزواجهن والإعلام بما تحملنه من سوء عشرتهم وشراسة أخلاقهم، لتقتدي بذلك من النساء من بلغها خبرهن في الصبر على ما يكون من الأزواج وتتأسى بمن تقدمها في ذلك[١٥]".

وأورد القاضي عياض قول الفقيه المالكي المهلب بن أبي صفرة عن هذا الحديث "فيه من الفقه **جواز التأسي بأهل الإحسان من كل أمة...**" ثم علق عليه قائلا "وأما قوله بجواز التأسي بأهل الإحسان من كل أمة فصحيح ما لم تصادمه الشريعة[١٦]".

وبهذه الروح المتفتحة وبهذا المنهج الاستيعابي، تعامل المسلمون —من الصحابة فمن بعدهم– مع الثقافات والحضارات والتجارب البشرية التي لاقوها واحتكوا معها، من رومية وفارسية ومصرية وهندية وصينية ويونانية وغيرها. فقد أوسعوا لها قلوبهم وعقولهم، فأخذوا وردوا وترجموا واستفادوا...

ونحن حينما نكون مسلحين بإيماننا وواثقين بأنفسنا، يجب أن نكون مع الديمقراطية والديمقراطيين، بل في طليعتهم، وحينما نكون محصنين بأخلاقنا وقيمنا، يجب أن نكون مع الحداثة والحداثيين، ونحن حين نتشبع بمقاصد الإسلام في العدالة والكرامة، لا يسعنا —مبدئيا– إلا أن ننخرط في حركة حقوق الإنسان، ونقف مع كافة المظلومين والمستضعفين، من مسلمين وغير مسلمين.

---

[١٤] نفسه، ص ١٧.

[١٥] نفسه ص ٣٦-٣٧

[١٦] نفسه ص ١٧١.

ونحن اليوم يجب أن نفتح حوارات وعلاقات مع أرباب الديانات الأخرى، وفي مقدمتها الديانة المسيحية بمختلف مذاهبها وكنائسها، لنتفاهم ونتعاون على تثبيت المعتقدات والقيم المشتركة، وعلى إنجاز الأهداف المشتركة، ومواجهة الأخطار المشتركة. ولقد كان للكنائس الفرنسية مؤخراً موقف تاريخي مشكور، حينما عارضت منع المسلمات في فرنسا من ارتداء الحجاب، وراسلت الرئيس الفرنسي بذلك. وكان للبابا يوحنا بولس الثاني موقف جيد في هذا الاتجاه أيضا.

نحن اليوم –ومستقبلا– بحاجة إلى أن نقوي ثقتنا في نفوسنا وثقتنا بديننا، بقوته الذاتية، وبقدرته الاستيعابية، وبأنه لا يمنعنا أبدا من أن نتحاور ونأخذ ونعطي، ولا يمنعنا أبدا –بل يوجب علينا– أن نبصر ما عند غيرنا من خير وحق ومن فضل وسبق، وأن نمدحهم عليه وننافسهم فيه، ونستعين بهم عليه. واثقين في الوقت نفسه بأحقية دين الإسلام وشريعة الإسلام، وأنه رحمة الله وهداه وعدله بين عباده، وأنه لذلك يعلو ولا يعلى عليه.

☑ مستقبل الإسلام بين الشعوب والحكام

كثير من الجماعات الإسلامية، وكثير من العلماء والدعاة، يعلقون –بدرجة كبيرة– وجود الإسلام، وتطبيق الإسلام، ومصير الإسلام ومستقبله، على موقف الدولة ومدى التزامها بالإسلام وقيامها بحمل رايته. وكثيرون يرون أن التطبيق الحقيقي للإسلام والمستقبل الحقيقي للإسلام إنما يتمثل في "**قيام الدولة الإسلامية**" أو ربما "**الخلافة الإسلامية**".

ولا شك أن الدولة الإسلامية أو الحكم الإسلامي هي عروة من عرى الإسلام، وحصن حصين للحياة الإسلامية والمجتمع الإسلامي. ولذلك فإن الانشغال بأمر إقامتها وبذل الجهود والتضحيات في سبيلها أمر مشروع ومعتبر. غير انه حينما تصبح إقامة الدولة الإسلامية هي الشغل الشاغل والهدف العاجل، أو هي الأولوية العليا والغاية القصوى، فإن هذا يصبح داعيا للتريث وموجبا للتثبت، حتى نضع الأمور في نصابها ونعطيها قدرها ومكانها.

لقد رأينا في حركاتنا الإسلامية من يجعلون من إقامة الخلافة شعارهم، ومجمع أهدافهم ومبتدأ طلبهم وتحركهم، معتبرين أن الأمة الإسلامية لا ينقصها سوى استرجاع الخلافة السليبة والنظر في وجهها والتمتع بجاهها.

ومنهم من اعتمدوا شعار "**الدولة الإسلامية أولا**"، فخاضوا لأجل الإقامة الفورية لها كبرى معاركهم وألقوا فيها كامل ثقلهم، وجندوا لها كل طاقاتهم وإمكاناتهم المادية والمعنوية.

ومنهم من لا يجعلون الخلافة والدولة كل شيء أو أول شيء، ولكنهم يجعلونها أصلا من أكبر أصولهم، ومنطلقا محددا لتحليلاتهم ومواقفهم ومسارهم. ولذلك فهي عندهم "**أعز ما يطلب**" حسب عبارة المهدي بن تومرت التي سمى بها أحد كتبه.

وأود أن أوضح أمورا من شأنها أن تساعد على تحديد موقع الدولة ومكانتها في الإسلام، من غير إفراط ولا تفريط، فيما أحسب.

لا نجد في شرع الله تعالى **نصا صريحا آمرا وملزما** بإقامة الدولة، كما لا نجد في شأنها نصوصا في الترغيب والترهيب على غرار ما نجد في سائر الواجبات. وإنما تقرر وجوب إقامة الدولة، ووجوب نصب الخليفة، من باب الاجتهاد والاستنباط، ومن باب النظر المصلحي والتخريج القياسي، وامتداداً للأمر الواقع الذي تركه رسول الله ﷺ.

وفي جميع هذه الحالات، فإن وجوب الدولة والخلافة إنما هو من باب الوسائل لا من باب المقاصد. فهي (أي الدولة) من قبيل ما لا يتم الواجب إلا به فهو اجب. بمعنى أن هذا الواجب ليس من نوع "**الواجب لذاته**" وإنما هو من نوع "**الواجب لغيره**". ومعلوم أن الواجب لغيره أخفض رتبة وأقل أهمية من الواجب لذاته. وهذا يعني أمرين: **الأول**: أن السعي في إقامة الواجب لغيره لا ينبغي أن يكون على حساب ما هو واجب لذاته، ولا يجوز أن يكون ضارا به أو مفوتا له. **والثاني**: أن ما تتوقف إقامته على إقامة الدولة، إذا أصبح ممكن التحقيق بغير الدولة فقد سقط وجوب هذه الوسيلة سقوطاً جزئيا.

كما أن الدولة القائمة قد يتأتى في كثير من الحالات إقامة بعض الدين في ظلها أو من خلالها، حتى ولو كانت منحرفة أو مناوئة أو معادية، فضلا عما إذا كانت محايدة أو محابية.

وفي هذه الحالات أيضا فإن أهمية "**الدولة الإسلامية**" وضرورتها تنقص بقدر ما تتيحه "**الدولة القائمة**" من فرص وإمكانات لإقامة الدين وإقامة أحكامه في الحياة الخاصة والعامة.

ثم إن الدولة التي نعتبرها وسيلة، هي في الحقيقة وعلى وجه التفصيل مجموعة من الوسائل، وهذه المجموعة من الوسائل قابلة للتفكيك والتفريق، أو بتعبير الأصوليين: قابلة للتبعيض، بحيث يتحقق بعضها دون بعض، ويكون بعضها قابلا للتحقيق وبعضا ليس كذلك. ويكون بعضها صالحا مشروعا، ويكون بعضها منحرفا مرفوضا. وهذا يعني أن ما يكون متحققا وصالحا ومقبولا في الشرع، أو كان ممكن التحقيق والإصلاح، فهو جزء من "الدولة الإسلامية" يجب التمسك به والاعتداد به.

غير أن الخطأ الكبير والمأزق الخطير الذي وقعت فيه وتقع فيه بعض الحركات الإسلامية، هو الانشغال بالوسيلة عن الهدف، وتضييع الهدف حرصا على الوسيلة، فكثيرون أولئك الذين أفنوا أعمارهم واستهلكوا حياتهم

واستنفدوا جهودهم على طريق إقامة الدولة، من غير أن يظهر لهذه الدولة أثر ولا خبر. وربما لم تزدد الدولة بفضل جهودهم إلا بعدا وعسرا. وهكذا فلا الدولة قامت بهم، ولا الأمة استفادت منهم.

والأدهى من هذا والأمر، هو أن يصل طلب الدولة والسعي إلى إقامتها إلى درجة التعذر والانسداد، أو بعبارة أخرى: يدخل طلب الدولة في مرحة انسداد المسالك وانفتاح المهالك، ومع ذلك يستمر الإلحاح والإصرار والصدام. والحقيقة أن إقامة الدولة تخضع لشروط وأسباب وقوانين تاريخية واجتماعية وسياسية، لا يمكن إلغاؤها أو القفز عليها بمجرد رغبة أو قرار، ولا بمجرد تقديم جهود وتضحيات، حتى ولو كانت صادقة ومخلصة وجسيمة. وقديما قال ابن عطاء الله الإسكندري رحمه الله: "**ما ترك من الجهل شيئا من أراد أن يظهر في الوقت غير ما أظهره الله**" فمن يريد ويصر على أن يحقق شيئا ويظهره في الوجود من غير أن يرى أن الله تعالى قد هيأ أسبابه وأنضج شروطه، فإنما يعبر بذلك عن جهله الكبير بالسنن والقوانين الاجتماعية.

نعم إن عمل الإنسان وجهده وتقدمه ونجاحه هو جزء من الأسباب والشروط، وهو محرك للسنن والقوانين بإذن الله، ولكنه يظل محكوما أو على الأقل محدودا بفعل عوامل كثيرة لا يجوز إغفالها أو إسقاطها من الحساب والتقدير. ولو فرضنا أن إقامة "الدولة الإسلامية" هي شعيرة تعبدية وفريضة تعبدية مطلوبة لذاتها، لكان على طلابها أن يتأنوا في التقدير ويتدرجوا في التدبير، وأن يجملوا في طلبهم "**فإن المنبَتَّ لا سفراً قطع ولا ظهرا أبقى**[١٧]" فكيف والأمر لا يصل إلى هذه الدرجة ولا يكتسي هذه الصفة.

أضف إلى هذا أن المجال فسيح أمام الحركة الإسلامية ودعاتها وعمالها في أن تحقق الكثير من أهدافها ومن أحكام دينها ومن إصلاح مجتمعها، من غير أن تقيم دولة ومن غير أن تمتلك سلطة، وذلك من خلال العمل في صفوف الأمة ومن خلال بناء الأمة ومن خلال "إقامة الأمة بديلا عن إقامة الدولة". وبيان ذلك فيما يلي:

☑ بناء الأمة أولاً

عن أبي أمامة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ : "**لتنقضن عرى الإسلام عروة عروة، فكلما انتقضت عروة تشبث الناس بالتي تليها. فأولهن نقضا الحكم وآخرهن الصلاة**[١٨]".

يكثر الاستشهاد بهذا الحديث على أهمية الدول الإسلامية وعلى أولويتها أو ضرورة استعادتها ضمن حركة التصحيح وإعادة البناء، حيث إن الحديث اعتبر الحكم عروة من عرى الإسلام.

غير أن هذا الحديث يشير إلى حقيقتين ضمنيتين لا ينتبه إليهما المستشهدون به، وهما:

---

[١٧] جزء من حديث رواه البيهقي في "شعب الإيمان" ٤٠٢/٣.

[١٨] صحيح ابن حبان ١١١/١٥، والمعجم الكبير للطبراني ١٩٨/٩.

١- كون الحكم هو أضعف عروة من عرى الإسلام، لأن الانتقاض والانكسار يصيب أول ما يصيب الجزء الأضعف أو الأقل صلابة من أي شيء. بينما يظل الجزء الأكثر قوة ومتانة صامدا مقاوما لعوامل الهدم والكسر، حتى يكون الأخير بقاء والأخير انكسارا وانتقاضا. فمعنى الحديث أن أضعف ما يعتمد عليه الإسلام في وجوده وبقائه هو الحكم، وأن أقوى ما يقوم عليه و أصلب ما فيه هو الصلاة.

٢- إن الإسلام يمكنه أن ستمر ويستقر وينمو ويمتد حتى مع انتقاض عروة الحكم، بانحرافه أو غيابه. فمن المعلوم أن الله تعالى انزل دينه "**ليظهره على الدين كله**" وأنه وجد ليبقى إلى قيام الساعة، فإذا كان سيفقد عروة الحكم في وقت مبكر من تاريخه، فمعنى هذا أنه سيعيش ويستمر قائما زمنا طويلا دون الاعتماد على تلك العروة المنتقضة !!!

ومصداق هذا التنبيه النبوي وتفصيله وبيانه يوجد في تاريخ الإسلام والمسلمين، من أول قرونه إلى الآن، فقد ترعرع الإسلام واشتد عوده وامتد نفوذه عبر الزمان والمكان بالرغم من انتقاض عروة الحكم. وصان المسلمون عزتهم ومنعتهم وحفظوا بيضتهم وأقاموا حضارتهم وطوروا علومهم، بل وسعوا رقعتهم ونشروا في العالمين دينهم، بالرغم من الانحراف والفساد والوهن في دولتهم وحكامهم وحكوماتهم.

ماذا يعني هذا؟

يعني أن عرى أخرى في الإسلام أكثر أهمية وفاعلية من عروة الحكم بقيت قائمة مشتغلة، ويعني أن الأمة تستطيع أن تكون قوية متينة نامية فعالة حتى مع وجود اختلالات وانحرافات وعاهات في نظام حكمها. ومعنى هذا أيضا أن الدولة ليست كل شيء وليست أهم شيء. وحين تصير الدولة هي كل شيء أو هي أهم شيء، في حياة الناس، وحتى في أذهانهم، فإنها تصبح حينئذ أخطر شيء على الناس وعلى قدراتهم ومبادراتهم وفاعليتهم.

أما حين ينظر الناس إلى الدولة على أساس أن لها حيزا محدودا ووظائف محدودة، وأنها لا يمكن أن تقوم مقام الأمة ولا أن تلغي وظائفها، فإنهم حينئذ يتحررون من عقدة الدولة ومن تأليه الدولة، وينطلقون في أداء واجباتهم وإصلاح شؤونهم وبناء مجتمعهم وحمل رسالتهم، أيا كانت مواقف الدولة ودرجة تعاونها أو تخاذلها أو انحرافها.

ومن الواضح جدا أن عامة المسلمين وعلماء المسلمين عاشوا ومضوا زمنا طويلا وقرونا عديدة على هذا الأساس، ولذلك استمر الإسلام يزداد قوة بعد قوة، وينتشر ويتسع مداه يوما بعد يوم، واستمرت الشعوب الإسلامية في تماسكها وتقدمها وعطائها بالرغم مما أصاب أنظمتها الحاكمة وحكامها من أعطاب وعيوب لا أنكر آثارها السيئة ولا أقلل منها.

وهذا ما يحتم علينا العناية بالأمة وبتفعيل طاقاتها وتطوير آليات عملها قبل العناية بالدولة ومؤسساتها. ليكن شعارنا في ذلك: (**بناء الأمة وتفعيلها أولا**).

لنتذكر أن الأمة هي ما يزيد على الألف مليون، وأن عشرات الملايين منهم يوجدون في قلب الدول الغربية والحضارة الغربية، وأن في الأمة ملايين من العلماء والأثرياء، ومن المفكرين والمبدعين، ومن الدعاة والعاملين. وملايين من المستعدين الراغبين في البذل والتضحية والجهاد لدينهم ولأمتهم وللبشرية قاطبة. وأن كل هذه الطاقات التي لا يحصيها إلا الله تعالى، لا تحتاج إلا إلى التحريك والتوجيه، تحتاج إلى من يسلك بها سبل الرشاد، في الدعوة والتعليم والإعلام والتدافع السياسي والثقافي السلمي، والعمل الخيري والتنموي.

إن الامتحان الكبير الذي على العلماء وطلائع العمل الإسلامي أن يخوضوه وينجحوا فيه هو تفعيل طاقات الأمة في جميع الاتجاهات، هو الوصول إلى **الاشتغال الآلي للمجتمع الأهلي**، أو ما يسمى اليوم بالمجتمع المدني.

☑ وختاما: نجاحنا لا يتوقف على فشل غيرنا

كثير من الكتاب والمفكرين والدعاة المسلمين إذا تحدثوا عن مستقبل الإسلام، دخلوا مباشرة في الحديث عن مواجهة المخططات والتحديات الخارجية والمؤامرات المعادية. وإذا تحدثوا عن رسالة الإسلام وحضارة الإسلام وحاجة البشرية إلى الإسلام، فإنهم سرعان ما يربطون ذلك بأزمة الحضارة الغربية وعيوبها، ويتحدثون عن فشلها وبوادر تفككها وحتمية انهيارها... وكأنه لا مستقبل للإسلام ولا مكان لرسالته وحضارته إلا على أنقاض الحضارة الغربية، ولا مكانة للمسلمين إلا بفشل الغرب وتلاشي قوته. وكأنه علينا أن ننتظر ذلك أو أن نعمل لأجله، لكي نأخذ بعد ذلك دورنا ونؤدي رسالتنا ونصنع مستقبلنا. وهذا ليس لازما، كما أنه — في جزء منه- ليس صوابا، فمصلحة البشرية — ومنها المسلمون- تكمن في إنقاذ الحضارة الغربية وتحسينها وترقيتها ما أمكن. وهذا لن يتأتى — من جهة- إلا بمحاورتها واختراقها واستيعاب إيجابياتها وتبنيها.

ومن جهة أخرى بمزيد من النجاح والتقدم للإسلام، بعقيدته وأخلاقه وقيمه وشريعته، وبالنماذج والإنجازات المشرفة لأهله، والمشوقة لغير أهله.

إن المسلمين — من حيث هم مسلمون- يجب أن يؤمنوا بمستقبل الإسلام ومكانته، وبدوره ورسالته، وبإمكان نجاحه ونجاعته، دونما توقف على نجاح الآخرين أو فشلهم، ولا على قوتهم أو ضعفهم، ولا على انتصارهم أو هزيمتهم. بعبارة أخرى: إن للإسلام مكانته وقوته ومستقبله حتى مع قوة الغرب وجبروته ومع بقاء حضارته وهيمنته.

لقد نهض اليابانيون ونجحوا فيما أرادوا النجاح فيه، تحت الهزيمة العسكرية والسياسية وتحت الاحتلال والتسلط الأمريكي. وكذلك فعل الألمانيون والكوريون الجنوبيون، و التيوانيون.

نعم هناك اختلافات حقيقية، ولكن هناك إمكانات حقيقية ليتقدم الإسلام وينتصر من حيث هو إسلام. كما هناك إمكانات حقيقية لفعل الكثير من أجل نهضة المسلمين وتقدمهم وتحضرهم. وإن إظهار الحق وإنجاحه لا يتوقف — مسبقا- على ذهاب الباطل وزواله. بل إن ظهور الحق ونجاحه وثباته هو المقدمة لزوال الباطل وتنحيه ﴿ **فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض**[١٩]﴾ ﴿ **وقل جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين ولا يزيد الظالمين إلا خسارا**[٢٠]﴾.

---

[١٩] سورة الرعد ١٧.

[٢٠] سورة الإسراء ٨١.